

تجليات الاغتراب في شعر ابن شهيد الأندلسي (382 هـ - 426 هـ)

الطالبة إلهام بروال

ilhemberoual@gmail.com

المشرف : أ.د أحمد كامش

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تاريخ الوصول : 2018/07/03 القبول: 2018/12/03 النشر على الخط:.....

.....Received :..... Accepted :..... Published online :.....

توطئة

تُعرّف ظاهرة الاغتراب في الشعر على أنّها الأزمة التي يحسّ الشاعر من خلالها بعجز عن تواصل جوهره مع وجوده الإنساني، كما تتفاوت نسبة بروز هذه الظاهرة من دفقة شعورية إلى أخرى، حسب درجة انفعال الشاعر والحالة النفسية التي يعيشها، فبقدر ما كان جرحه عميقا بقدر ما تكون صرخة غربته قويّة شديدة جليّة في شعره، فينتج جمالا وإبداعا ينبع من عمق تجربته، وخاصة إذا كان صاحب قريحة فدّة تخدمه وقت الحاجة.

والدّارس للشّعر الأندلسي يلمس حتما معجما شعريا يفيض بمشاعر الغربة والاعتراب، وذلك لارتباط الشاعر الأندلسي من جهة وبشكل كبير بواقعه المعاش، خاصة بعد سقوط المدن الأندلسية وسوء الوضع الأمني داخلها، وتعلقه ببيئته الخّلاية من جهة أخرى، مما يجعل نتاجه الشعري أكثر تعبيرا وصدقا عن ذاتيته، ولعلّ أبرز من ترددّ مفهوم الغربة في شعرهم ابن دراج القسطلي (ت 421 هـ)، وصديقيه ابن حزم (ت 456 هـ) وابن شهيد الأندلسي (ت 426 هـ)، حيث أودع هؤلاء الثّلة - على سبيل المثال لا الحصر- خلاصة ذكرياتهم عن أوطانهم وحنينهم إليها، وفقد أحبّتهم في الأشعار التي نظموها، لكنّ مما نأسف له عدم إفراد دراسات حول هذه الظّاهرة عند ابن شهيد الأندلسي رغم كونه أنموذجا خصبا لظاهرة الاغتراب بشقّي صورها ودوافعها، نلمس ذلك في شعره الذي يمثّل مدوّنة لغويّة تحوي محصولا لفظيا هائلا، يكفي أن يمثّل شعراء الأندلس في تلك الحقبة قاطبة، لما يملكه من قدرة تأثيريّة إيحائيّة، عكست لنا صورا صادقة لحياته المضطربة وغير المستقرّة، كما لعب دورا مهمّا في إبراز بعض الجوانب الخفية من شخصيته باعتباره المصدر الثري لاستجلاء ذلك ومن بين مظاهر الاغتراب في شعر ابن شهيد:

• اغتراب الأسرة:

ولد ابن شهيد الأندلسي في قرطبة عام 382هـ/992م، سليل أسرة عريقة اشتهرت بالأدب والبيدهة والمنزلة والجلالة، وهذا ما أثر بصورة مباشرة في بناء شخصيته، فاكتسب فصاحة اللسان، وبلاغة

حزني على سرواتها ورواتها
كبدني على علمائها حلمائها
وثقاتها وحماتها يتكرر
أدبائها ظرفائها تنفطر

لينقل ابن شهيد في القصيدة نفسها إلى وصف ربيع قرطبة في أبي حله، متحسرا على ماجرى له¹:

يا جنة عصفت بها وبأهلها
أسى عليك من الممات وحق لي
كانت عراصك للميمم مكة
يا منزلًا نزلت به وبأهله
ريح النوى فتدمرت وتدمروا
إذ لم نزل بك في حياتك نفخر
يا أوي إليها الخائفون فينصروا
طير النوى فتغيروا وتنكروا

كان وقع ذلك الخطب الجلل كوقع من يزرع زهرة ويعيش حتى يرى ذبولها وهذا ما أضفى على قلبه إحساس الغريب من فقد أحبته والحزن والألم لفراق دياره وزوال رغدها، برز كل ذلك في صور بيانية غزيرة تجلت في البيت الأول حين خاطب قرطبة كإنسان حذف هذا الأخير وأبقى على لازم من لوازمه وهو " النداء" على سبيل الاستعارة المكنية. كما شبه الفراق والتشتت الذي أحدثته هذه المحنة بريح عاصفة أذهبت الأخضر واليابس، فتدمرت قلوبهم.

لم يتوقف ابن شهيد عند هذا القدر من التدقيق اللغوي، فاستحضر في البيت الثالث بيت عبد الرحمن الداخل حينما قال²:

أيها الراكب الميمم أرضي
إن جسمي كما تراه بأرض
أقر من بعضي السلام لبعضي
وفؤادي ومالكه بأرض

ولم يقنع ابن شهيد في تلك الأبيات بتصوير قرطبة أرضا كما فعل عبد الرحمن الداخل، بل شبهها بمكة المباركة لجلالة هذه الأرض في نفسه مقتبسا ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾³، أما في الشطر الثاني فقد واصل اقتباسه من القرآن الكريم كون مكة مكانا للأمان والنصرة للخائفين لقوله عز وجل: " وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا"⁴، وقوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ"⁵.

¹ الديوان، ص 110.

² البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى المراكشي، ت: ج س كولان، إ - ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط3، 1983، ج2، ص 60.

³ سورة آل عمران، الآية 96.

⁴ سورة البقرة، الآية 125.

⁵ سورة البقرة، الآية 126.

أدت طبيعة الأندلس وجمالها إلى تغير مفهوم الوطن عند شعرائها، إذ أصبح يعني المدينة التي يعيش فيها الشاعر نفسه، وهذا ما عبّر عنه ابن شهيد الأندلسي بعدما شبه ما حل بأهله بطير الشؤم الذي شتت جمعهم فأحدث التمييز بينهم حينما قال¹:

يا منزلًا نزلت به وبأهله طير النوى فتغيروا وتنكروا

كان هذا الحشد الهائل للصور البيانية في شعر ابن شهيد دليلًا على مدى الألم الذي يغمر قلبه والحزن الذي يخنق صدره، كما أن الحنين إلى الديار والماضي لم يفارق ابن شهيد في كامل ديوانه وخاصة بعد هذه النهاية السياسية القاسية التي عاشها، إذ لا يوجد أشد قسوة على الإنسان من أن يفقد ما يملكه مهما كان قليلاً، فكيف إذا كان المفقود عرشاً بنعيمه وخيراته، وما صاحبه من تقلب الحال من العلو السامق إلى الحضيض الهابط، ومن العز إلى الذل، ومن الأنا إلى الغربة فانطوت لذلك نفسه بالحزن والأسى واليأس والضيق ولازال يذكرها في أغلب قصائده وخاصة في مقدماته الطللية كقوله مثلاً في رائيته²:

ما في الطلول من الأحبة مخبر
لا تسألن سوى الفراق فإنه
جار الزمان عليهم فتفرقوا
وفي مطلع قصيدته لمديح أبي مروان³:

منازلهم تبكي إليك عفاها
ألّبت عليها بالمعصرات بقطرها
وقوله كذلك في مديح عبد العزيز المؤتمن⁴:

هاتيك دارهم فقف بمغانها
عجنا الركاب بها فهيج وجدنا
دار عهدت بها الصبا لي دوحة
وقوله كذلك في حبه لقرطبة⁵ مسترجعاً ذكرياته بها متمنيا الموت على هواها:

عجوز لعمر الصبا فانيّة
زنت بالرجال على سنّها
ترديت من حزن عيشي بها

لها في الحشا صورة الغانية
فيا حبداً هي متزانية
غراما فيا طول أحزانيه

¹ الديوان، ص 110.

² نفسه، ص 109.

² نفسه، ص 82.

⁴ نفسه، ص 165.

⁵ نفسه، ص 168.

لم يكتف ابن شهيد عند هذا القدر فقط بل تحدث عن نية الهروب إلى مالقة أبياتا تسامت فيها شاعريته من خلال تصويره للحظات الحزن وكبته الدموع دون التخلي عن عزة نفسه دائما¹:
ولما فشا بالدمع من سروجنا إلى كاشحينا ما القلوب كواتم
أمرنا بإمساك الدموع جفوننا ليشحى بما تطوى عدول ولائم
فظلت دموع العين حيرى كأنها خلال مآقينا لآل توائم
أبى دمعنا يجري مخافة شامت فنظمه بين المحاجر ناظم

وسبب رغبته في الهرب إلى مالقة أنه كان من شعراء وأدباء ديوان الوزارة مع صديقه ابن حزم وابن عمه عبد الوهاب، فأمر الخليفة الجديد محمد الثالث المستكفي (273 هـ) بسجن ابن حزم وابن عمه، فخاف ابن شهيد أن يسجن كذلك، ففكر في الهرب إلى مالقة، للاحتماء بيحي بن حمود أملا منه أن يجد له حلا لهذه المشكلة، فكانت هذه الأبيات بمثابة صورة شعرية دقيقة عكست لنا حالته النفسية كما هي في الواقع، ورغبته الشديدة في البكاء بعدما منعه عن ذلك عزة نفسه خوفا من شماتة أعدائه، لكن هذه الصورة لم تكن مبتكرة وحديثة، بل سبقه إلى ذلك الرمادي² (403 هـ) وابن عبد ربه (328 هـ)، وهذا ما علّق عليه ابن بسام في ذخيرته عن طريق تتبعه قول ابن شهيد وإرجاعه لقائليه الأوائل بعدما وصفه بـ³ " ... حذاق الصناعة في أخذ المعاني...، ألا ترى قول أبي عامر حين سمع الرمادي يقول:

ولم أر أحلى من تبسم أعين
وبيت الرمادي من قول ابن عبد ربه:
وكأنما غاص الأسى بجفونها
غداة النوى عن لؤلؤ كان دامنا
حتى أتاك بلؤلؤ منثور"

● اغتراب المرض:

¹ نفسه ، ص 154.
² يوسف بن هارون الرمادي: من أهل قرطبة؛ يكنى: أبا عمر. كان شاعر الأندلس المشهور، والمقدم على الشعراء... كان يلقب بأبي جنيش فنقل إلى الرمادي. وكان مقلا ضيق العيش ونسب إليه بعضهم أشعارا في دولة الخلافة أوغرت صدر الخليفة عليه فسجنه زمانا طويلا، ونظم في السجن عدة قصائد استعطف بها الخليفة فلم يعطف عليه.. قال ابن حيان: وتوفي سنة ثلاث وأربع مائة. يوم العنصرة فقيرا معدما ودفن بمقبرة كلع. ينظر: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ت 578 هـ)، نشره وصححه وراجع أصله: السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، ط 2، 1374 هـ - 1955 م، ص 637، وبغية الملمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، للضبي (ت 599 هـ)، دار الكاتب العربي - القاهرة، 1967 م، ج 1، ص 428، ومعجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي (ت 626 هـ)، تج: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1414 هـ - 1993 م، ج 6، ص 2849، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان (ت 681 هـ)، تج: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط 1، 1994، ج 7، ص (225-229).

³ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتري، ق 1، ج 1، ص 322-323.

أما معاناة ابن شهيد من علة الصمم، كما قال عنه ابن سعيد في كتابه المغرب في حلى المغرب¹: "وكان ابن الحناط² أعمى وابن شهيد أصم"، جعله يعيش عالما غريبا شعر فيه بالتدمير والغضب والوحدة والغربة، لعدم وصوله إلى غاياته، وأهدافه المرجوة، وهي أن يتقلد منصب الكتابة بالرغم من سلالته ومقدرته الفذة، وهذا ما وُلد في نفسه إحساس التّرجسيّة والاعتداد بالنفس، يقول في ذلك يعقوب زكي في مقدمة الديوان³: "ولعلّ هذه العاهة الجثمانية، مضافا إليها المرارة التي كان يشعر بها حين خابت مطامحه في المنصب وحبطت مساعيه، قد زادت من حدّة توتر أعصابه وعمقت ميوله الفني، فكان لصممه إذن من الخطر مثلما كان لصمم بيتهوفن أو عرج بيرون" فيقول لائما دنياه وما ابتلي به⁴:

وفتى أرهفت ظباه المعالي
فتنته بالباطر المقضاب
نيبته أيامه وليالي
ه بظفر من الخطوب وناب
ولو أنّ الدنيا كريمة نجر
لم تكن طعمة لفرس الكلاب
وإذا ما نظرت ما حاز غيري
قلّ عمّا حملته في ثيابي
جيفة أنتنت فطار إليها
من بني دهرها فراخ الذئاب

كان اغتراب ابن شهيد التّفسي من خلال تلك الحادثة أمرا طبيعيا، رأى من خلاله إهانة كبيرة وإجحافا في حقّه من قبل أناس لم يقدرّوه حقّ قدره، ولذلك جاء شعره طافحا بمرارة الغربة والحقد والتّقامة، فأخذ يهجو معاصريه من الكتاب هجاءً لاذعا، قال في هجاء كاتب غير معروف⁵:

ويح الكتابة من شيخ هبنقة
يلقى العيون برأس مخه رار
ومنن الريح إن ناجيته أبدا
كأنما مات في خيشومه فار

ومن الكتاب الذين هجاهم أيضا: الكاتب أبو جعفر أحمد بن عباس (ت 185هـ)، وكان هذا الأخير "كاتباً حسن الكتابة، مليح الخط، جيد الخطابة، غزير الأدب، قوي المعرفة، ... عامل أهل قرطبة الذين فيهم منتماه، ... بأسوأ ما عنده، وتنقص أديهم أبا عامر بن شهيد... ولا استخراج

¹ المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، ت: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1955م، ج1، ص 123.

² ابن الحناط: (ت 430هـ) محمد بن سليمان الرّعيّني أبو عبد الله البصير، يعرف بابن الحناط، كان متقدّما في الآداب والبلاغة والشعر، وشعره كثير مجموع، مدح الملوك والوزراء والرؤساء، وكان يناوئ أبا عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد بليغ وقته، ويعارضه وله معه أخبار مذكورة ومناقضات مشهورة، ينظر جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، الحميدي أبو عبد الله بن أبي نصر (ت: 488هـ)، الدار المصرية للتأليف والنشر - القاهرة، 1966 م، ص 57.

³ مقدمة الديوان، ص 16.

⁴ الديوان، ص 86.

⁵ نفسه، ص 106.

درهما من عنده إلا في سبيل الشهوات، فأسمن جسمه، وهزل عرضه، وأشبع بطنه، وأجاع ضيفه...¹ فهجاه ابن شهيد قائلاً:²

أبو جعفر ررجل كاتب
تملاً شحماً ولحمماً وما
مليح شبا الخط حلو الخطابة
يليق تملؤه بالكتابة

● اغتراب الأسر والسجن:

لو حاولنا الحديث عن شعر الأسر فلربما لن نجد شاعراً من شعراء الأندلس لم يمرّ بهذه التجربة، أو حتى عاش رهبتها مع غيره، وخاصة بعد ما حلّ ببلادهم من نكبات، وكانت نهاية ابن شهيد الأندلسي الأليمة على يد من دمّر مملكته المباركة، وخلع عنه جنته، أن يُلقى مأسوراً في دار الظالمين إثر استماع الخليفة المعتلي (ت 427هـ) لأقوال الواشين الكاذبة. فذجّ به في السجن لذلك لكنّ تبقى مدّة سجنه غير معلومة وصفها ابن خاقان وذكر حاله في قوله³: " ودبّت إليه أيام العلوّيين عقارب، برئت بها من أباعد وأقارب، واجهه بها صرف قطوف، وانبرت إليه منها خُطوب، نبا لها جنبه عن المضجع، وبقي بها يارق ولا يهجع، إلى أن علقته من الاعتقال حباله وعقلته في عقاب أذهب ماله، فأقام مُرتهنا، ولقي وهنا".

وما كانت هذه التجربة التي مر بها إلا بمثابة تجربة درامية قاسية، شجّن بها شعره في الأسر فتبدّت فيه ظلال نفسيته في صورتها النهائية الحقيقية التي أكدت أنّها لم تطق مرارة الحقيقة، ولم تتحمّل الواقع المذجج بالفشل الساحق، والذي ولّد لديه الإحباط القاتل للنفس ورغباتها، وأتمثل في هذا الصدد قوله⁴:

فراق وسجن واشتياق وذلة
فمن مبلغ الفتیان أنّي بعدهم
مقيم بدار ساكنوها من الأذى
وسمع للجنان في جنباتها
وجبار حفاظ علي عتيد
مقيم بدار الظالمين طريد
قيام على جمر الحمام قعود
بسيط كترجيع الصدى ونشيد
وما اهتز باب السجن إلا تفتطرت
قلوب لنا خوف الردى وكبود

يكشف ابن شهيد في الأبيات السابقة عن ثلاثة أمور قسمت كاهله وأثنت ظهره وهي: فراق أحبته ووطنه، وألم قيده واشتياقه للحرية، وأسفه عن ذلته بين خصومه وأعدائه بعد عزته

¹ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ص (264-266).

² الديوان، 95.

³ مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، أبو نصر الفتح بن محمد بن خاقان، تح: محمد علي شوابكة، دار عمار مؤسسة الرسالة، ط1، 1403هـ 1983م، ص 198.

⁴ الديوان، ص 100.

وترفه، تلك معاناة مركبة "ثقيلة الوطأة على نفسه"¹. يتفق من خلالها أثر رسول يخبر أصدقاءه أنه آل لمصيرهم، وأنه مطرود من دياره مقعد بدار سكانها من هواة الأذية، مبدأهم قضاء الموت وقدره، فكان كثيرا ما يسمع فيها أصوات الجنّ تعلقو وكأتمها أناشيد يرجع صداها من كل ناحية في السجن، وكان هذا الإحساس الرهيب منبعث من شدة وحشة المكان وخلوه من الحركة وإعدامه للحياة، وهذا ما زاد من روعة وهول الفاجعة في نفسه، فكان كلما فُتح باب السجن، وإلا وقلب ابن شهيد يتشقق ويتفطر من شدة الخوف والورع.

أيّ حزن وخوف أعمق من هذا الذي يبوح به ابن شهيد، وأيّ جرح هو أعمق من جرحه، وهو يواجه مصيره المحتوم وحده لا شريك له، سوى جماعة من الحمام ارتفع هديلها فشجاه صوتها فناجها قائلاً²:

وقلت لصداح الحمام وقد بكى
ألا أيها الباكي على من تحبه
وما زال يبكيه وأبكيه جاهدا
إلى أن بكى الجدران من طول شجوننا
على القصر الفا والدموع تجود
كلانا معنى بالخلاء فريد
وللشوق من دون الضلوع وقود
وأجهش باب جانباها حديد

استعمل بن شهيد في هذه الأبيات ألفاظا مطروقة نسجها في صورة مألوفة، لكننا نجده يبدع في تجسيدها، مبتكرا لنفسه عالما خاصا به، يحدّد فيه مكنوناته بما يتوافق مع نفسيته، حيث يصف فيه ما يعانيه من الضيق الشديد، والانحباس النفسي المريب، فخوّلت له نفسه أن يجري حوارا مع الحمام الباكي المتواجد فوق مبنى السجن الذي كان يقبع فيه، والذي كان يرى فيه المؤنس الوحيد له في وحشته، والمواسي لأحزانه، فأفصح له عن ألمه المتأجج في صدره بكثير من الدموع وخصوصا أنه يراه شبيها له في الفراق والوحدة في مكان لا أحد فيه، ولا شيء فيه، غير الألم والحرن.

فآلام ابن شهيد الأندلسي هنا متعددة جعلته غير قادر على تحديد هويتها، فضلوعه تتقد وتشتعل كاشتعال الوقود في صدره، وهذه كناية عن حدة العذاب النفسي الذي أضحى يلاقه، ولم تهمد قريحة ابن شهيد عند هذا الحد، بل استمر في الحديث عن همومه، وعمّمها على كل ما يحيط به، مستحضرا بذلك صورة بديعة نطق لجمالها الجماد، وغرق هو الآخر في حبال مخيلته ليصحو على بكاء الجدران، وإجهاش الباب حين فتح، رغم أنّ مصراعيه من حديد، وغرض ابن شهيد من هذا التصوير البليغ تعزية نفسه المعذبة التي باتت تدرك أنّ عذابها لا حل له ولا أصل لها في انقطاعه عنها، فكان عزاؤه ضعف باب السجن رغم ما يملكه من قوة وصلابة الحديد، فلم يجد

¹ الغربية والحنين في الشعر الأندلسي، فاطمة طحطح، كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1993، ص148.

² الديوان، ص 101.

وسيلة أفضل من البكاء مع التصريح به، كونه سلوكاً لا شعورياً، يصارع به حاضره التعيس ويستعطف من بإمكانه أن يحنّ عليه.

تلك هي رؤى ابن شهيد عند أسره، يبثها في أبيات شعره وقد أثقلتها الهموم والأحزان، فباتت غربة وحرقة لم تعادلها أية غربة أو أيّ حزن وألم عظيمين، وكأنها حسرة وأنين دفينين تدفقا مع دفقته الشعورية في معان وصور قدّمت لقارئها برهاناً قويا على نبوغ هذا الشاعر ومقدرته الفذة في إيصال أحاسيسه بكل هذه الدقة والتفصيل.

● اغتراب الموت:

كانت لصراع ابن شهيد الأندلسي مع غربته وما تمخض عنها من ألم وعذاب، نتائجاً حسمها القضاء والقدر بمرض بعد موت في سن الثالثة والأربعين، فأصيب بمرض الفالج النصفي "سنة 425 هـ. ... - لكنه كان- قادراً على أن يتحرك من مكان إلى آخر متكئاً على عصا أو معتمداً على رجل آخر"¹ إلى أن بقي له عشرون يوماً في حياته "صار حجراً لا يبرح ولا يتقلب، ولا يحتمل أن يحرك لعظيم الأوجاع، مع شدة ضغط الأنفاس وعدم الصبر، حتى هم بقتل نفسه"²، فقال³ في رثاء نفسه وقد عزم على الانتحار باعتباره حيلة لاشعورية ينهي بها صراعه مع الحياة، كما أكد على ضرورة الموت للاستراحة من متاعب الحياة وعذابها:

أنوح على نفسي وأندب نبلها
إذا أنا في الضراء أزمعت قتلها
رضيت قضاء الله في كلّ حالة
عليّ وأحكاماً تيقنت عدلها
أظنّ قعيد الدار تجنّبي العصا
على ضعف ساق أوهن السّقم رجلها
عليكم سلام من فتى عضّه الرّدى
ولم ينس عيناً أثبتت فيه نبلها
يبين وكفّ الموت يخلع نفسه
وداخليها حبّ يهوّن ثكلها

لكن أيامه الأخيرة كانت حافلة برصيد شعري غزير استحضرته "قريحة كالجمر، وهمة تضع أحمصه على مفرق البدر"⁴ فكانت "أخصب فترة خلق أدبي مرّ بها ابن شهيد"⁵، ويقول في ذلك المقري⁶: "ولزمته آخر عمره علة دامت به سنين، ... أقعدته حتى حمل في المحقة، وعاودته حتى

¹ مقدمة الديوان، ص 51. انظر أيضاً الذخيرة لابن بسام، ق1، ج1، ص 328.

² الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتري، ق1، ج1، ص 328.

³ الديوان، ص 145.

⁴ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتري، ق1، ج1، ص 267.

⁵ مقدمة الديوان، ص 51.

⁶ نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، المقري التلمساني: تج: إحسان

عباس، دار صادر بيروت لبنان، ط1، 1997، ج3، ص 362.

غدت لرونقه مشتفة، وعلى ذلك فلم يعطل لسانه، ولم يبطل إحسانه، ولم يزل يستريح إلى القول، ويزيح ما كان يجده من الغول".

أولى ابن شهيد العناية الفائقة في نظمه تلك الأشعار الحزينة التعبير الصادق عما يختلج صدره والبوح الصريح عن أوجاعه، وخاصة بعد إحساسه غربة الحياة الدنيوية ومقربة انتهائها، فكان يؤرقه هاجس الموت، كونه أصعب نقطة تحوّل عاشها في مسار حياته، وخاصة بعدما عاشه من لهو ومجون واستهتار بالقيم والمبادئ، وربما يرجع ذلك حتما للعصر الذي عاش فيه من جهة وعاهة الصمم التي تجاوزها بشرب الخمر والاستمتاع مع الحسنات والجلوس إلى الندماء من جهة أخرى إذا كانت تلك محطات مهمة في حياة ابن شهيد، فالموت كان بالنسبة له أهمها ومنهيا، فكان حديثه عن هذه القضية حديث الشاعر المدرك لحقيقة هذا الأمر وجوهه، عملا بقوله عز وجل¹: " كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْفِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ"، فقال في ذلك أبياتا في الحكمة²:

ورحيل عيشك كلّ رحلة ساعة وفناء طيبك في الزّمان الأطيب
فإذا بكيت فبكّ عمرك، إنّه زجل الجناح يمرّ مرّ الكوكب
وقال ابن بسام في الذخيرة³: "وكان أبو عامر كثيراً ما كان يخشى صعوبة الموت، وشدة السوقفيسر الله عليه، وما زال يتكلم ويرغب إلى الله أن يرفق به، ويكثر من ذكره، وقد أيقن بفراق الدنيا، إلى أن ذهبت نفسه رحمه الله يوم الجمعة آخريوم من جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة. لم يشهد على قبر أحد ما شهد على قبره من البكاء والعيول" فكان لذلك صادق الإحساس مع بارئه، غير منافق في كلامه، مسترجعا كل ما عاشه، معترفا بذنبه، فقال في ذلك⁴:

وليس عجيبا أن تدانت منيّتي يُصدق فيها أولى أمر آخري
و الشيء الذي هوّن عليه تقبل حقيقة الموت، أنه أيقن أنه كان مجرد عابر سبيل في الحياة الدنيا، وهو الآن راحل منها لا محالة، رغم ما عاشه من طول مدة، أولدة، فيبدو ابن شهيد في نهاية هذه الحياة القصيرة والمليئة بالمتناقضات وكأنّه أصبح زاهدا لاثما نفسه عن كل ما ارتكبه من معاصي متطلعا لأمر واحد هو الموت، يقول في ذلك⁵:

تأملت ما أفنيت من طول مدتي فلم أزه إلا كلمحة ناظر

¹ سورة آل عمران، الآية 185.

² الديوان، ص 91.

³ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ق1، ج1، ص 334.

⁴ الديوان، ص 113.

⁵ نفسه، ص 113.

وحصّلت ما أدركتُ من طول لذّتي فلم أُلّفه إلا كصفقة خاسر

هو الموت لم يُعرّف بأجراس خاطب بليغ، ولم يعطف بأنفاس شاعر

وضاق ابن شهيد ذرعا بالحياة الأليمة التي أضحي يعيشها، فراسل أصدقاءه يشكو حالته إليهم عسى أن يجد عزاءه فيهم، ويجد من يخفف عنه ضيق نفسه فهو يشتاق إلى أهله وأصدقائه في حياته قبل مماته لما يحسه من غربة واشتياق لهم، ويراهنا عذابا أليما، بعدما أيقن أنه سيعيش اغترابا وانفصالا غير الاغتراب والانفصال السابقين، فقال¹ في ذلك:

أستودع الله إخواني وعشرتهم وكلّ خرق إلى العلياء سبّاق
وكوكبا لي منهم كان مغربه قلبي، ومشرقه ما بين أطواقي
الله يعلم أنني أفارقه إلا وفي الصّدر ممّي حرّ مشتاق
إنّي لأرمقه والموت يضغطني فأقتضي فرجة مرتدّ أرماعي

وإذا ما تتبعنا أشعاره عن الصداقة قبل موته، وجدنا أن عامل الاغتراب صار أعمق بكثير من ذي قبل، وتضخّم معه شعوره بالوحدة والانقباض فارتفعت نزعة التشاؤم عنده، فشبه ما حل به بطائر الشؤم وقال²:

أقر السّلام على الأصحاب أجمعهم وخصّ عمرا بأزكى نور تسليم
عشنا أليفين في برّ الهوى زمنا حتّى رقي بنوانا طائر الشؤم
فشتتت نوبّ الأيام ألفتنا قسرا ولم يُغنها ظنّي وتنجيمي

وكان لابن شهيد صديق حميم، وكان قرينا له في السن، نشأ معه في دولته، وهو ابن حزم الأندلسي، فراسله في مرضه، يسترجع معه الماضي الجميل الذي جمعهما والصداقة الحقة التي ربطتهما، ويطلب منه أن يؤنّنه بعد وفاته، ويدعو الله أن يغفر له، "في أسلوب حي مرّن قوي ولكن في أسلوب رصين"³، حافظ من خلاله الشاعر على انفعالات نفسه وتأجج عواطفه، فكانت هذه آخر قصيدة نظمها⁴ و"التي تعتبر آيته العظمى - فهي- واحدة من عدد قليل يعد على الأصابع من أروع القصائد العربية التي كتبت في اسبانيا"⁵ بقوله⁶:

ولما رأيت العيش لوّى برأسه وأيقنت أن الموت لا شكّ لاحقي
تمنيت أنّي ساكنٌ في غيابة بأعلى مهبّ الرّيح في رأس شاهق

¹ نفسه ، ص 129.

² الديوان، ص 149

³ مقدمة الديوان، ص 56.

⁴ نفع الطيب، المقري، ج3، ص 362.

⁵ مقدمة الديوان، ص 56.

⁶ الديوان، ص 133- 135

أدُرُّ سقيط الحَبِّ في فضل عيشةٍ
 خليبيّ من ذاق المنيةَ مرّةً
 كأنّي وقد حان ارتحالي لم أفر
 فمن مبلغ عتيّ ابن حزمٍ وكان لي
 عليك سلام الله إنّي مفارقٌ
 فلا تنس تأبيني إذا ما ذكرتني
 وحرّك به بالله من أهل فنّنا
 عسى هامتي في القبر تسمع بعضه
 فلي في ادكاري بعد موتي راحة
 وإنّي لأرجو فيما تقدّمت

فرد عليه ابن حزم يهدئ من جزعه، ويتألم لفقده، بقوله¹:

أبا عامر ناديت خلاً مصافيا
 وأمت قلبا مخلصا لك ممجّضاً
 شدائد يجلوها الإله بلطفه
 يفديك من دُهم الخطوب الطوارق
 بوُدك موصول العرى والعلائق
 فلا تأس إنَّ الدهرَ جَمُّ المضايق

● خاتمة:

ومن هنا يمكن القول بأنّ ظاهرة الاغتراب في حياة وشعر ابن شهيد الأندلسي، تبدو متشابكة ذات طابع انساني، تداخلت فيها جميع ظروفه السياسية والاجتماعية والثقافية مع طبيعته النفسية وعقليته الصعبة، كان أكثر شعراء عصره رفضاً للوضع المعاش بمختلف مجالاته، لكنّه أثبت من خلال شعره على قدرته العالية من الاستفادة من تجارب غربته تلك ليجسدها في معجم شعري غزير جعل الخيال معياراً أساسياً فيه لتصوير غربته بكل ما يصاحبها من مشاعر صادقة عميقة إلى أن لقي حتفه غريباً.

¹ جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، الحميدي، ص 134.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، للضببي (ت 599هـ)، دار الكاتب العربي - القاهرة، 1967 م.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى المراكشي، ت: ج س كولان، إ - ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط3، 1983م.
- تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، إحسان عباس، دار الثقافة بيروت لبنان ، 1969م.
- جذوة المقتبس في ذكر ولادة الأندلس، الحميدي: الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، 1966م.
- 6.ديوان ابن شهيد الأندلسي، تح: يعقوب زكي، راجعه: محمود علي مكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، دت، دط.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: أبو الحسن علي بن بسام الشنتري، ت: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ط1، 1981م.
- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ت 578 هـ)، نشره وصححه وراجع أصله: السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، ط 2، 1374 هـ - 1955 م.
- الغربية والحنين في الشعر الأندلسي، فاطمة طحطح، كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1993م.
- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، أبو نصر الفتح بن محمد بن خاقان، تح: محمد علي شوابكة، دار عمار مؤسسة الرسالة، ط1، 1403 هـ 1983م.
- المغرب في حلئ المغرب، ابن المغرب سعيد المغربي، ت: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1955م.
- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، المقري التلمساني: تح: إحسان عباس، دار صادر بيروت لبنان، ط1، 1997م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان (ت 681هـ)، تح: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط1، 1994م.